مـكتبة رؤية

لخدمة طلاب دار العلوم

تـــقـــدم

أدق وأقوى:

[الملخصات - السكاشن - المراجعات] في:

مادة / المماليك والعثمانيين

الفرقة الرابعة

أعدها لكم د/ مصطفى العدوي

2022

2022

للتواصل :

- عن طريق جروبنا على الفيس بوك:

Facebook group د / مصطفى العدوي

- أو عن طريق جروبنا على الواتس آب و التليجرام عبر هذا الرقم :

٠١١١٢٦٠٥٧٦٩

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

- القسم الثاني : (الشرق الإسلامي في العصرين المملوكي والعثماني) ويشتمل على (تمهيد وبابين):

- **التمهيد:** (مفهوم الشرق الإسلامي - ونشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية) .

- **الباب الأول:** (تاريخ الدولة المملوكية في مصر والشام ٦٤٨-٩٢٣هـ).

* **الفصل الأول** : دولة المماليك البحرية ٦٨٤- ٧٨٤هـ .
* **الفصل الثاني** : دولة المماليك البرجية (الجراكسة) ٧٨٤- ٩٢٣هـ.
* **الفصل الثالث** : صور من حضارة المماليك ونُظُمهم .

- **الباب الثاني:** (الدولة العثمانية ٦٩٩-١٣٤٠هـ) ؛

* **الفصل الأول** : (قيام الإمارة العثمانية واتساع حدودها) .
* **الفصل الثاني** : (الدولة العثمانية في عصر الإمبراطورية) .
* **الفصل الثالث**: الدولة العثمانية في مرحلة الضعف والانهيار {ما بعد السلطان سليمان القانوني}.
* **الفصل الرابع** : نظام الحكم ومظاهر الحضارة الإسلامية .

****

"مقدمات تمهيدية" :

✍- مفهوم الشرق الإسلامي:

- **الشرق:** من المصطلحات المستحدثة التي ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري، حيث أطلق الأوروبيون على بلادهم مصطلح الـــغرب، وعلى مستعـــمراتهم في آسيا وأفريقيا مصطلح الشرق.

وقد تفرعت هذه التسمية إلى فرعين هما :

- **الشرق الأقصى:** ويُقصد به الصين والهند وما جاورهما من بلاد.

- **الشرق الأدنى:** ويُقصد به البلاد المعروفة الآن بدول "الشرق الأوسط"، وهي البلاد الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، والتي تتميز بأنها أقرب بقاع العالم الشرقي إلى الغرب جغرافيًا. **وأهم الدول التي تُشكل الشرق الأوسط بتعبير الغرب و"الشرق الإسلامي" بالتعبير الدقيق هي:** الدول العربية الواقعة في قارة آسيا، وما يُتاخمها من الدول الإسلامية كتركيا في الشمال، وإيران في الشرق، بالإضافة إلى "مصر" وهي الدولة العربية الوحيدة من الشرق الإسلامي التي تقع في إفريقيا .

✍- نشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية:

يُعرف المملوك - لغة – بأنه العبد الذي يُباع ويشترى وجمعه مماليك، ويُقصد بالمماليك اصطلاحاً في التاريخ الإسلامي جموع الرقيق الأبيض الذي كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر في الحروب، أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية.

ويلاحظ أن مصطلح المماليك قد ارتبط بالأتراك أكثر من ارتباطه بغيرهم من أجناس الرقيق ؛ ذلك لأن المعتصم بالله العباسي (٢١٨-٢٢٧هـ) أول من شكل فرقًا عسكرية من الأتراك، إذ عني باقتناء أبناء هذا الجنس صغاراً وعكف

على جلبهم من سمرقند وفرغانة والسند وغيرها من أقاليم ما وراء النهر (تركستان)- الموطن الأصلي حتى بلغت عدة مماليكه بضعة عشر ألفاً .

وقد أصبح استخدام المماليك الأتراك ظاهرة شائعة في كثير من أنحاء الدولة الإسلامية وبخاصة بعد أن ضعفت الخلافة العباسية، وانحسر نفوذها المركزي، وجنح كثير من حكام الأقاليم التابعة لها إلى الاستقلال عنها، وكذلك فقد أدت المنازعات والحروب الناشبة بين حكام تلك الولايات المستقلة إلى التوسع في شراء المماليك الأتراك لدعم جيوشهم في مواجهة الخلافة أو في مواجهة أصحاب الولايات الأخرى.

ولم تكن مصر بمنأى عن تلك الظاهرة؛ إذ جرى إلحاق المماليك الأتراك في الجيش في طور مبكر من تاريخها فكانوا عنصرًا مؤسسًا في جيش الطولونيين حيث حرص أحمد بن طولون على جلب أعداد كبيرة منهم، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها كما يقول "القلقشندي" في كتابه (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) .

كذلك كان المماليك عنصراً مؤثراً ومؤسساً في جيوش الإخشيديين والفاطميين، لكن دون أن يكونوا أصحاب النفوذ الغالب، أو الأداة الحربية الوحيدة على نحو ما آل إلى هذا الأمر فيما بعد.

وعلى الرغم من أن المماليك الأتراك قد تزايدت أعدادهم في مصر في عهد (صلاح الدين الأيوبي)؛ فإن النظام المملوكي لم يستوفِ مقوماته المعروفة إلا في عهد خلفائه، فقد أدت النزاعات التي قامت في الأسرة الأيوبية بعد ذلك إلى الإفراط في جلب المماليك للاستعانة بهم في هذه النزاعات، ولذا يكثر في تاريخ الأيوبيين أسماء الفرق المملوكية مثل: المماليك العزيزية نسبة العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، والعادلية نسبة إلى الملك العادل أخو صلاح الدين ، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل وهكذا...

- الصالح نجم الدين أيوب والمماليك البحرية :

يعود الفضل للسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب في تكوين فرقة جديدة من المماليك قُدر لها أن تنهض بدور خطير في التاريخ هي فرقة المماليك البحرية والتي شرع في تكوينها سنة ٦٣٨هـ بعد أن أحكم سيطرته على حكم مصر.

ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه في الوصول للحكم فضلاً عن حاجته إلى قوة من المماليك ينتمي أفرادها إليه وينتمون ويرتبطون بالولاء له فاشترى من المماليك ما لم يشتر أحد من الملوك مثله، حتى عاد أكثر جيشه مماليكه .

- تربية المماليك : لم يكن المماليك المحاربون يعاملون معاملة الرقيق، بل كانوا يتمتعون بامتيازات عالية وكانوا يتحررون ويعتقون ويتولون أرقى المناصب، ويشعرون أن السلطان واحد منهم، وكانت ثقافتهم وتربيتهم تعتمد على التعليم الديني والعسكري ، ويُخصص لهم معلمون للسباحة والرمي والمبارزة، وكان التفوق الحربي والموهبة العسكرية هي التي تفتح لهم طريق الترقي إلى نيابة السلطنة أو السلطنة نفسها .

****

"الباب الأول": العصر المملوكي "٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م" :

- الفصل الأول: دولة المماليك البحرية ٦٤٨-٧٨٤هـ:

- من الأيوبيين إلى المماليك :

خرجت دولة المماليك من رحم الظروف التاريخية العصيبة التي أحاطت بالأيوبيين الأواخر، والتي تمثلت في الحملة الصليبية السابعة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ ، وكانت الظروف آنذاك بمنتهى الخطورة نظراً لأن السلطان نجم الدين أيوب كان يعاني مرضاً عضالاً فاضطر للخروج إلى دمياط على رأس جيشه محمولاً على محفة، هذا

بالإضافة إلى وقوع خيانة في صفوف كبار الجند الأيوبي، ثم كانت الفاجعة بوفاة السلطان سنة ٦٤٧هـ وهو في الرابعة والأربعين من عمره .

وقبل موته كان قد عهد بالحكم بعده لابنه **(تورانشاه)**، وأخذ العهد بذلك من كبار رجال دولته كما أمرهم بكتمان خبر موته حتى يقدم ابنه من حصن " كَيْـفا " (وكان حاكمًا عليه)؛ **وقد نفذوا وصيته** فلم يخبروا الجيش بذلك حفاظاً على روحهم المعنوية ومنعاً لوصول ذلك إلى عيون الأعداء .

وقد بذل المماليك البحرية جهوداً كبيرة في الدفاع عن مدينة المنصورة واشتبكوا مع الصليبيين في قتال ضار في شوراعها وأزقتها، وشاركهم الأهالي في مقاومة الأعداء حتى هزموا وانسحبوا بعد أن شاع في صفوفهم القتل والأسر، وكان من جملة الأسرى (لويس التاسع) نفسه حيث سُجن في دار القاضي ابن لقمان .

وكان من المأمول أن يُجازي المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب "المماليك البحرية" خيرًا على دورهم المهم مع الصليبيين، لكنه لم يفعل ذلك، بل تَنكر لهم وأبعدهم عن مراكزهم، واعتمد على مجموعة من المماليك الذين جاءوا معه من حصن كيفا، **وساءت علاقته بالمماليك بصورة ملحوظة** فاعتقل بعضهم وتوعدهم بالقتل، **وانتهى الأمر** بأن قرر المماليك التخلص منه فقتلوه في عام ٦٤٨هـ ، **وبموته ينتهي حكم الأيوبيين في مصر بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة، وعدد ملوكهم ثمانية .**

شجر الدر: *يبدو أن* المماليك الذين قتلوا تورانشاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة، **ولذلك أجمعوا على تولية شجر الدر**، أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب منصب السلطنة، وهي من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك؛ ولأجل هذا فإن المقريزي يعدها أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، كذلك اجتمع الرأي أن يكون الأمير (عز الدين أيبك التركماني الصالحي) نائبها وقائد جيشها. **وقد خطب لها على المنابر ونقش اسمها على النقود** باسم (المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل أمير المؤمنين).

وعلى الرغم من تقرب شجر الدر من الأهالي والشعب والأمراء بمصر، بمنحها الإقطاعات لأهل الدولة، وتخفيضها للضرائب عن الرعية، إلا أن هذا لم يجعلها تخرج من مأزق الرفض لحكمها باعتبارها امرأة، **كذلك رفض الخليفة العباسي (المستعصم بالله)** الاعتراف بالسلطانة الجديدة. **كما اتسمت ردود أفعال الأيوبيين الحاكمين في بلاد الشام بالعصبية والضيق**، ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج، وحاولوا القيام بعمل عسكري للاستيلاء على مصر.

وخروجاً من هذا الموقف رآت شجر الدر ومعها المماليك البحرية أنه ما بدٌ من خلع نفسها – بعد ثمانين يومًا من الحكم – وتفويض المُلك إلى رجل مملوكي تجتمع عليه الكلمة، فوقع الاختيار على الأمير (عز الدين أيبك الصالحي) ، فتولى الحكم وتلقب بالمعز، وتزوج من شجر الدر .

- السلطان المعز أيبك ٦٤٨- ٦٥٥هـ وتوطيد نفوذ المماليك في مصر:

تولى أيبك التركماني السلطنة سنة ٦٤٨هـ وتلقب باللقب السلطاني "الملك المعز" **رغم أنه لم يكن في الواقع أكبر الأمراء المماليك سناً أو أقدمهم خدمة، أو أقواهم نفوذاً ومكانة** ، إذ كان يوجد من هم أكبر منه وأقدر مثل (فارس الدين أقطاي، والظاهر بيبرس)، لكنه كان يتمتع بصفات طيبة وخصال كريمة فكان معروفاً بالسداد وملازمة الصلاة ولا يشرب الخمر.

ويبدو أن **المماليك حسبوه ضعيفاً** فولوه الأمر مَخافةً أن يتقلده أحد المماليك الأقوياء فينفرد بالأمر دونهم ويبعدهم عن تصدر المشهد السياسي في مصر في ذلك الوقت.

د/ مصطفى العدوي
2022
2022

ومهما يكن من أمر، فقد أصبح المعز أيبك حاكمًا لمصر نائباً عن الخليفة العباسي الذي فوضه في حكم البلاد، وكان عليه لتثبيت دعائم حكمه أن يواجه عدداً من الأخطار :

• **أول هذه الأخطار تمثل في اعتراض المماليك البحرية على وجود أيبك على رأس السلطة في مصر** وذلك على الرغم من مبايعتهم له، **والغريب أنه** لم تكن مَضت على هذه البيعة **خمسة أيام**، وقاد اعتراض المماليك في ذلك الوقت الأمير فارس الدين أقطاي ، والأمير ركن الدين بيبرس ، وأعلنوا أنه لابد أن يجلس على العرش سلطان من بني أيوب يجتمع الكل على طاعته، ومن الواضح أن الهدف الحقيقي للمماليك البحرية كان استئثارهم لأنفسهم بالحكم .

وقد احتال أيبك لإرضاء المعارضين بالموافقة على تنصيب صبي صغير من بني أيوب سلطاناً هو(الأشرف موسى) الذي لم يكن له من المُلك سوى الاسم، وأصبح لمصر سلطانان تخرج الأوامر والمراسم باسمهما معًا وينقش اسمهما على النقود معاً، وبالرغم من ذلك استمرت المعارضة لدى بعض زعماء المماليك في مصر.

ولم تصف الأمور بعد ذلك للمعز أيبك من جانب المماليك، فقد ظل زعيمهم **فارس الدين أقطاي** يُمارس نفوذًا واسعًا في البلاد، كما حظي بمكانة سامية بين المماليك فكانوا يسألونه حوائجهم ويلقبونه **بالملك الجواد**، **كذلك عظم فساد المماليك** فكانوا يأخذون أموال الناس عنوة ويعتدون على نسائهم، **كل ذلك دفع المعز أيبك** إلى قتل أقطاي، **ونتج عن ذلك** تفرق مماليكه في البلاد وانتهاء فتنهم في مصر .

- **الخطر الثاني الذي واجهه السلطان أيبك** تمثل في ملوك الأيوبيين في بلاد الشام الذين كانوا ينظرون إلى مصر بوصفها جزءاً من دولتهم، ولم يقنعهم جلوس الأشرف موسى الأيوبي بجوار المعز أيبك على عرش مصر؛ إذ كانوا يدركون أنها فقط حيلة للإبهام ببقاء البيت الأيوبي في صدارة المشهد السياسي :

- معركة العباسية ٦٤٨هـ :

خرج الأيوبيين بزعامة الملك الناصر يوسف الأيوبي حاكم حلب و دمشق، لاسترداد مصر من المماليك، ووقع قتال بين الطرفين سنة ٦٤٨هـ عند العباسية بالشرقية، وانتصر المماليك وعادوا إلى مصر مُعلنيين عن النصر، وتثبيت أقدامهم وقيام دولتهم الناشئة في بمصر .

وبعدها تم عقد صلح بين الجانبيين سنة ٦٥١هـ تلبية لدعوة الخليفة العباسي "المستعصم" لتعاون فيما بينهم ضد خطر المغول على الشرق الإسلامي .

- المماليك والخطر المغولي:

حكم المعز أيبك حتى عام ٦٥٥هـ حيث قُتل بتدبير من زوجته السلطانة **شجر الدر**، فقد بلغها أنه عزم على الزواج من ابنة الملك "بدر الدين لؤلؤ" صاحب "الموصل" ، فخشيت أن يؤدي ذلك إلى ابعادها عن دائرة النفوذ والسلطنة، وتخيلت أن السلطان ربما قد عزم على قتلها، فعاجلته ودبرت لمقتله، لكنها لقت المصير نفسه على يد مماليك زوجها، **ليخلو المسرح في مصر من أيبك وشجر الدر معًا .**

- ✍- المنصور على أيبك ٦٥٥-٦٥٧هـ:

اتفق المماليك على أن يتولى المنصور على بن أيبك الحكم بعد مقتل أبيه، وكان عمره في ذلك الوقت **خمس عشرة سنة** ولذلك تولى الأمير "سيف الدين قطز" نيابة السلطنة وأصبحت أمور الدولة وتصريف شئونها في يده.

ومن الجدير بالذكر أن المماليك لم يؤمنوا طوال حكمهم للبلاد بنظام وراثة العرش، ولم يتبعوا هذا النظام عن قصد كقاعدة ثابتة، وكان الذي يحدث عادةً عند وفاة سلطان من سلاطين المماليك هو أن يجتمع كبار الأمراء ويعينوا ابن

د/ مصطفى العدوي

المتوفي في منصب السلطنة خلفاً لأبيه؛ لا إيماناً بمبدأ الوراثة؛ ولكن كحل مؤقت إلى أن يتجلى الموقف بين الأمراء ويظهر الأمير القوي. **وهذا بالظبط ما حدث بعد وفاة المعز أيبك**، فقد استغل الأمير "قطز" خطر جيوش المغول الزاحفة تجاه مصر ليسيطر على العرش بعد أن قبض على المنصور علي بن أيبك واعتقله وأسرته بعد أن جلس على العرش حاكماً شكلياً مدة **سنتين وثمانية أشهر** .

والمغول: قبائل رعوية بدائية عاشت في هضبة منغوليا في شمال الصين، وهو مكان يتسم بقسوة مناخه سواء في الصيف أم في الشتاء، **وبجوارهم عاشت قبائل أُخرى** تسمى بقبائل "**التتار**" والتي تميزت عن قبائل المغول بأنها أكثر رفاهية وتنعمًا، كما كانوا أكثر تحضرًا وثراءًا، **وعلى الرغم** من أن قبائل المغول تختلف عن قبائل التتار فإن اسم "التتار" هو الذي غلب على هذه الأسماء، فأصبحت هذه الأقوام تُعرف به أمام العالم الخارجي آنذاك .

وفي هذه المنطقة وفي هذا المناخ ولد "جنـــگيز خان" مؤسس الإمبراطورية المغولية الذي استطاع عام ٦٠٣هـ جمع قبائل المغول تحت زعامته، كذلك سيطر على مناطق الصين الشمالية واستمر في توسعه حتى استطاع أن يقضي على **الدولة الخوارزمية** في إيران ودمروا الحواضر الإسلامية الكبرى المتمثلة في بخارى وسمرقند ومرو وغيرها .

وفي عام ٦٥١هـ خرج هولاكو – حفيد جنـــگيز خان – على رأس جيش من المغول، وأكمل سيطرته على بلاد ما وراء النهر وإيران. **وفي عام ٦٥٥هـ** قام هولاكو بمهاجمة العراق في خلافة الخليفة العباسي الأخير(المستعصم بالله)، وتقدم بجيوشه لحصارعاصمة الخلافة العباسية بغداد، ولعب الوزير الشيعي **(ابن العلقمي)** دورًا أساسياً في تمكين التتار من دخول بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ وإسقاط الخلافة العباسية، وقُتل معه من المسلمين بالعراق (نحو الأفي ألف قتيل) ولم ينج سوى اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم، وإلى الوزير ابن العلقمي .

وفي سنة ٦٥٧هـ اتجهت جيوش المغول للسيطرة على الشام وبعدها مصر، وتمكنوا من الاستيلاء على مدن الشام التي كانت تحت حكم الأيوبيين الذين كانوا في نزاع دائم وخلاف مستمر حتى في الوقت الذي أصبح فيه خطر المغول ماثلاً للعيان بعد استيلائهم على بغداد. **وبعد أن استولى المغول على بلاد الشام** لم يعد هناك من بلدان المشرق سوى (مصر، واليمن، وبلاد الحجاز)، **وفي سنة ٦٥٨هـ** اتجهت جيوش المغول صوب **مصر** بغية الاستيلاء عليها وضمها لدولتهم الواسعة.

✍ معركة عين جالوت ٦٥٨هـ:

جاءت رسل هولاكو إلى مصر حاملة رسالة تهديد ووعيد إلى سلطانها (المظفر قطز) ومما جاء في هذه الرسالة: **(من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك ... أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه، وسلَّطنا على من حل به غضبه، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى).**

ولما وصلت هذه الرسالة إلى "قطز" جمع الأمراء للمشورة واتفقت الآراء على قتل رسل هولاكو تأديبًا وتخويفًا، فقُطعت رؤوسهم وعُلقت على أبوب القاهرة .

بدأ المظفر قطز في الاستعداد لمواجهة الخطر المغولي واستجاب قطز لرغبة رجال الدين على رأسهم الشيخ "العز بن عبد السلام" لجمع الأموال من الأغنياء والقادة والأمراء قبل أن يقوم بجمعها من عامة الناس .

2022 2022 2022 د/ مصطفى العدوي

والحقيقة أن السلطان قطز كان شديد الحماسة لصد هذا العدوان، وتظهر هذه الحماسة في رده على بعض الأمراء المتقاعسين عن الخروج للجهاد عندما صرخ فيهم قائلاً: **(يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه)**، ثم ركب السلطان وقال أنا ألقي التتار بنفسي ، فلما رأى الأمراء مسيره، لم يسعهم إلا الخروج معه لملاقاة المغول.

ومن الأمور المهمة التي حدثت قبل خوض معركة عين جالوت ساهمت في تدعيم الجيش المسلم:

١- **عودة المماليك البحرية** الذين فرّوا بعد مقتل الأمير أقطاي إلى الشام **والمشاركة في الجهاد ضد الخطر المغولي** وقد أكرمهم الأمير السلطان قطز إكراماً كبيراً وبخاصة الأمير "بيبرس" .

٢- **عودة هولاكو بجزء كبير من الجيش** إلى عاصمة المغول (قراقوم) لحدوث نزاع بين أخوته حول الحكم، وقد ترك قيادة جيشه لقائده "كـــتبغا"؛ مما كان له أثرٌ في إضعاف قوة التتار في ذلك الوقت.

٣- **كان قد سبق الأمير بيبرس الجيش على رأس قوة استطلاعية، وقد تمكن من الاستيلاء على** "غزة" من أيدي المغول. فارتفعت معنويات الجند المسلم قبل خوض المعركة الفاصلة .

أحداث المعركة: التقى بيبرس بالجيش بقيادة "قطز" وواصلوا مسيرهم حتى وصلوا (عين جالوت) من أعمال فلسطين ودارت معركة شديدة في رمضان سنة ٦٥٨هـــ أبلى فيها الجيش المملوكي بلاءً حسناً وعلى رأسهم السلطان "قطز" الذي كان يُقاتل بنفسه المغول صارخاً (واإسلامااااه) وكذلك الأمير بيبرس وقد قتل من جيش المغول عدد كبير وكان على رأس القتلى القائد "كتبغا" .

نتائج موقعة عين جالوت :

١- كانت بمثابة سد منيع حال دون تقدم المغول إلى مصر، وبذلك احتفظت مصر بما لها من حضارة ومدنية.

٢- لقد وضعت عين جالوت حداً لغارات المغول المدمرة وحروبهم الهمجية والوحشية التي التهمت الأخضر واليابس، وقضت على الخرافة القائلة بأن المغول قوة لا تقهر .

٣- ومن نتائج هذه الموقعة توحيد مصر والشام تحت حكم المماليك، وأصبح المماليك أمام الرأي العام الإسلامي أجدر الناس بتولي السلطة في الشرق الإسلامي، بعدما أزاحوا عن كاهله خطرين عظيمين، حيث ردوا الحملة الصليبية السابعة على مصر ، وانتصروا لأول مرة على جحافل المغول .

٤- انحصار المد المسيحي عن آسيا؛ حيث كان هولاكو نصيرًا للمسيحية وحاميًا لها.

٥- وأخيراً يمكن القول بأن انتصار المماليك على المغول في هذه المعركة أنقذ العالم المسيحي في أوروبا من هذا الخطر المدمر، فلم يكن في أوربا المسيحية وقتذاك ملك قوي يستطيع مقاومة المغول.

السلطان بيبرس ٦٥٨-٦٧٦هـ ومرحلة بناء الدولة واستقرار الحكم :

قتل المظفر قطز إثر مؤامرة دبرها الأمير بيبرس وهو في طريقه عودته إلى القاهرة. ولم يكن قد أتم عاماً كاملاً على عرش البلاد، **ولما كان من المألوف في عصر المماليك أن يحل القاتل في سهولة محل القتيل** على عرش السلطنة ، ما دام القاتل قد أظهر الشجاعة والقوة ما ضمن له التفوق على زملائه من الأمراء ، **ففي الوقت الذي كان قطز ما يزال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دمائه** تقدم الأمراء من المماليك البحرية لمبايعة بيبرس بالسلطنة قبل أن يعودوا إلى

أ/ مصطفى العدوي
2022
2022

القاهرة . **وجلس بيبرس على عرش مصر وتلقب بالظاهر** ، وهو يعد في القمة من سلاطين المماليك وفي عهده بدأ البناء الحقيقي لدولة المماليك البحرية .

✍ ويمكن إجمال أهم ما قام به بيبرس في النقاط الآتية :

١- إلغاء الضرائب والقضاء على الثوراث :

أول الإجراءات التي قام بها بيبرس إلغاؤه للضرائب التي فرضها السلطان قطزعلى الناس لتمويل جيشه لحرب المغول، فسعد المصريون بذلك واطمأنت قلوبهم .

كذلك واجه بيبرس بعض الثائرين عليه من الأمراء؛ مثل :

أ- **ثورة الأمير علم الدين سنجرالحلبي** الذي كان واليًا على دمشق بأمر من السلطان قطز، ولما علم بمقتله ثار وأعلن نفسه سلطاناً، وقد نجح بيبرس في القضاء على ثورته سنة ٦٥٩هـ .

ب- **تمرد الأمير شمس الدين آقوش** الذي استولى على حلب وطمح في المسير إلى مصر لانتزاع مُلكها، لكن بيبرس أرسل إليه جيشاً قضى على ثورته سنة ٦٦١هـ .

ج- **كذلك نجح في القضاء على تمرد (المغيث عمر)** صاحب الكرك وهو من نسل الأيوبيين.

د- **كما قضى بيبرس على ثورة شيعية في القاهرة كانت تستهدف إحياء الخلافة الفاطمية** وكان قد استولى الثائرون على الأسلحة الموجودة في دكاكين السيوفيين، وشقوا القاهرة وهم يصيحون "يا آل علي" ، لكن جنود بيبرس أحاطوا بهم وقضوا عليهم في سهولة ويسر.

٢- إحياء الخلافة العباسية :

أراد بيبرس أن يُضفي على حكمه رداءاً شرعياً، ورأى الحل في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم، **وعلى الرغم من** أنه لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية؛ فإنه أول من نجح في تحقيق هذا المشروع والتاريخ تصنعه الأفعال لا النيات، **وكان قطز قد فكر في إحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٨هـ** عندما أرسل يستدعي واحدًا من سلالة العباسيين هو "أبو العباس أحمد"، بعد انتصار عين جالوت وجاء الأمير العباسي بالفعل إلى دمشق وبايعه قطز بالخلافة، ولكن مصرع قطز حال دون إعادة كرسي الخلافة إلى القاهرة .

وفي عام ٦٥٩هـ استدعى بيبرس أميراً عباسياً آخر هو **"أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر محمد بن الناصر لدين الله"**، وبايعه بيبرس في القلعة على الخلافة، وبعد ذلك فوض الخليفة العباسي السلطان بيبرس في حكم البلاد الإسلامية ومنحه لقب **قسيم أمير المؤمنين** الذي لم يحصل عليه أحد قبله .

والواقع يؤكد أن الخلافة العباسية لم تكسب لنفسها شيئًا من إحيائها في القاهرة؛ فلم يكن للخليفة أي دور حقيقي سوى السعي إلى حفلات تنصيب السلاطين وولاة العهد، كما أن سلاطين المماليك لم يأمنوا لهم أبدا، فأبقوهم في منازلهم في وضع أقرب ما يكون إلى السجن، أما الفائدة الحقيقية فقد عادت على السلاطين وعاصمتهم "القاهرة"؛ فقد صاروا هم حُماة الخلافة ، ومن ثم حُقّ لهم أن يدعوا لأنفسهم مكانة سامية في العالم الإسلامي .

٣- بيبرس والمغول:

- **لم تنقطع المعارك بين المماليك والمغول بعد عين جالوت، ففي سنة ٦٥٩هـ** أغار المغول على "حلب" وضيقوا على أهلها حتى أكلوا الميتة والجلود، فالتقى بهم المسلمون عند "حمص" وهزموهم هزيمة منكرة. **كما تعرضت "دمشق"** لهجوم المغول في عام ٦٦٠هـ.

- **وفي سنة ٦٦٣هـ** صد أهالي مدينة (البيرة) هجوم التتار عليهم، وقد أكرم الظاهر بيبرس أهل هذا الثغر إكراماً كبيرًا.

2022 2022 2022 د/ مصطفى العدوي

وقد حاول الحاكم المغولي "أبغا" أن يعقد مصالحة مع الظاهر بيبرس منذ عام ٦٦٤هـ لكن بيبرس رفض الصلح؛ إذ كيف يرضى أن يصالحهم وقد مزقوا العالم الإسلامي .

- وفي سنة ٦٧١هـ أغار المغول على (البيرة) مرة أخرى، فتوجه الظاهر بيبرس إليهم على رأس جيش كبير، وتمكن من صد هجومهم وطردهم من "البيرة" التي كانت لها أهميتها الجغرافية والتجارية باعتبارها محطة بين شمال العراق وشمال الشام .

* وأهم موقعها خاضها الظاهر بيبرس ضد التتار، وكان لها آثارها الكبيرة هي موقعة:(أُبلسْتين سنة ٦٧٥هـ)، وفيها انتصر الظاهر بيبرس على المغول، ومَزق جيش المغول شر مُمزق، وهزموا هزيمة منكرة، شبيهة بهزيمتهم عند عين جالوت.

٤- بيبرس والصليبيون :

بدأ جهاد المماليك للصليبيين بالشام زمن السلطان (بيبرس) الذي يُعد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، سنة ٦٦٣هـ وفيها توجه الظاهر بيبرس نحو (قيسارية) وبعد معركة ضارية هُزم فيها الصليبيون تم فتحها وهُدمت قلعتها. وبعد فتحه لقيسارية توجه نحو (أرسوف) بين قيسارية ويافا ففتحها في السنة السابقة نفسها ٦٦٣هـ .

وفي سنة ٦٦٦هـ استولى بيبرس على مدينة "يافا" .

- وفي السنة السابقة نفسها ٦٦٦هـ وجه بيبرس ضربة حاسمة إلى إمارة أنطاكية في أقصى الشمال، حيث هاجمها بثلاث فرق : إحداهما: اتجهت إلى ميناء السويدية لتقطع الصلة بين أنطاكية والبحر، والثانية: توجهت لمنع وصول إمدادات من أرمينية الصغرى، والثالثة: هي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس. وكان سقوط انطاكية في الواقع كارثة كبرى على القوى الصليبية.

وهكذا قام بيبرس بمناوأة الصليبيين في بلاد الشام لمدة عشر سنوات كاملة (٦٥٩-٦٦٩هـ) ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة برسلها إلى الإمارات الصليبية في الشرق .

٥- الاصلاحات الإدارية والاقتصادية وضبط أمور الدولة :

كان بيبرس حريصاً في فترة حكمه على النهوض الاقتصادي بمصر والشام والحجاز فأنشأ عدد من القناطر الخيرية في مصر وبلاد الشام، كذلك اهتم بعمارة الحرم النبوي الشريف، وبمسجد قُبة الصخرة بالقدس، وتعمير القلاع الموجودة في بلاد الشام .

وعلى صعيد الإدارة فقد استحدث بيبرس مجموعة من الوظائف للأمراء والجنود ومن هذه الوظائف (أمير السلاح - أمير المجلس- - وظيفة الدويدار) .

وفي مجال القضاء أمر السلطان بيبرس في عام ٦٦٣هـ بأن يكون لكل مذهب من مذاهب الفقهية قاض مستقل بذاته، فصار القضاة أربعة وذلك ضمان للعدالة وتوسعة على الناس في أحكامهم، يُضاف إلى ذلك أن بيبرس كان حريصاً على الجلوس للنظر في المظالم بنفسه في دار العدل ينظر في شكاوي الناس ويحكم فيما شجر بينهم .

أبناء بيبرس:

توفي بيبرس في عام ٦٧٦هـ وكان قد عهد بالحكم لابنه الملك السعيد (محمد بركة خان) وأخذ له البيعة من الأمراء، وقد تـمت بيعته مرة أخرى بعد وفاة أبيه. والحقيقة أن تصرف بيبرس لا يُعني أنه كان يؤمن بمبدأ الوراثة، ولكن يبدو أن عاطفة الأبوة قد غلبته، وربما كان يرى أن ما قدمه من أعمال جليلة يكفل لابنه "الملك السعيد" القيام في الحكم من بعده دون إعتراض من كبار الأمراء.

لكن السلطان الجديد أساء إدارة البلاد فعمد إلى تقريب مماليكه على حساب كبار الأمراء فتحالف زعماء المماليك ضده وعلى رأسهم الأمير "سيف الدين قلاوون"، وتطور الأمر إلى حد قيام بمحاصرته في القلعة، وفي النهاية خلع نفسه من الحكم ورضي أن يتوجه إلى الكرك في الشام وانتهت مدة حكمه التي كانت حوالي سنتين وشهرين.

وكان أكثر المماليك حظًا لتولي السلطنة في ذلك الوقت هو الأمير سيف الدين قلاوون، ولذلك عرض عليه الأمراء ذلك، لكنه تظاهر بالرفض وقال:(أنا ما خلعت الملك السعيد طمعًا في السلطنة، والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر). ولا شك في أن قلاوون لم يفعل ذلك لأنه رأى أن غالبية الجيش من المماليك الظاهرية التابعين للظاهر بيبرس، فضلاً عن أن الأمور لم تكن مهيأة له للجلوس على عرش السلطنة فخاف أن يثور عليه الأمراء والجنود.

وفي نهاية المطاف استقر رأي الأمراء أن يتولى الحكم (سُلامش بن بيبرس) على أن يكون الأمير "قلاوون" وصياً عليه لكونه صبياً في السابعة من عمره، وهذا يُعني أن أمور الدولة أصبحت في يد قلاوون فأخذ يُمهد لنفسه فقبض على من يتوقع معارضتهم له، وأمر أن تخرج النقود وعليها اسمه بجوار "سُلامش" كما قرن اسمه باسمه في الخطبة على المنابر، وبعد أن شعر أن الأمور أصبحت في يديه قال للأمراء:(قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل)، فاتفقوا على خلع "سُلامش" وأرسلوه إلى الكرك، وكانت مدة جلوسه على العرش مائة يوم، ولم يكن له من الملك سوى الاسم فقط.

أسرة قلاوون:

لم يحدث طوال القرنين ونصف القرن التي حكم فيها سلاطين المماليك مصر أن ظلت السلطنة في بيت واحد مدة طويلة باستثناء بيت قلاوون الذي حطم تلك القاعدة والذي يعتبر مثلاً فريداً في تاريخ المماليك على بقاء الحكم في بيت واحد أكثر من قرن (منذ اواخر القرن الثالث عشر حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلاديين). ولا يمكن إرجاع هذه الظاهرة إلى إيمان المماليك في حقبة مُعينة بمبدأ وراثة الملك، والدليل على ذلك أن أمراء المماليك لم ينقادوا لبيت قلاوون طوال ذلك القرن، وإنما قامت محاولات لعزل بعض سلاطين بني قلاوون من الحكم، ونجح بعض الأمراء في تولي السلطنة فعلاً في تلك الأثناء، ولكن التيار القلاوني كان لا يلبث أن يتغلب بعد قليل.

**********نتوقف هنا

للاستفسار عن المادة العلمية وسكاشن الشرح: ت/ ٠١١١٢٦٠٥٧٦٩

مع أطيب الدعوات بالنجاح والتخرج

للحصول على النسخة الكاملة

- مكتبة رؤية: أمام باب تجارة – أول شارع المرور – بجوار مركز إبداع.

- سنتر الشرح HBS: أمام باب تجارة – عمارة البنك الأهلي – الدور السابع .

للاستعلام: ٠١٠٦١٨٧٨٨٢٤-٠١١١٢٦٠٥٧٦٩

د/ مصطفى العدوي 01061878824